النَخلةُ في حضارة وادي النيل في مِصْرَ

محمّد رجب السامرّائي
كاتب صحفيّ

النخلة أُدخلت إلى مصر عن طريق برزخ السويس، أو أنها وصلتها من المغرب الأفريقيّ عن طريق الواحات الغربيّة؟
عثر على عقد يُمثل البلح من الزخرف الأخضر في أحد قبور الأسرة الثامنة عشرة المحفوظ في قسم الزراعة القديمة بالمتحف الزراعيّ.
ثمار النخلة- التمر- أكلوه طرياً ومجففاً واستخرجوا منقوعاً مُستخرجاً من الشراب مازال بعض الأهالي يستخرجونه إلى اليوم.

النخلة شجر التمر واحدته نخلة والنخيل اسم جمع لا جمع نخلة، وهو يُذكّر ويُؤنّث فتقول النخلُ وهي النخلُ، أما النخيل فمؤنثة. واحتلت النخلة مكانة كبيرة لدى الأمم والشعوب القديمة وما زالت حتى الآن بسبب فوائدها العديدة للنّاس، حتى أنّها ارتبطت في القصص الشعبي بآدم أبو البشر- عليه السلام- وورد ذكرها في الأديان السماويّة الثلاث، كما تغنّى بها الشعراء وتناولها الكُتّاب بنشاطهم يسجلون المعارف الخاصة بها. وحظيت النخلة بالكثير من جهود علماء الزراعة والنبات والمؤلفين والكُتّاب في الحضارة العربيّة الإسلاميّة. (١)

تشير المصادر التاريخية إلى الاختلاف البيِّن في تحديد موطن النخيل الأول والذي يُعدّ من

أقدم أشجار الفاكهة، حيث زُرِعَت أشجاره في جهات نهريّ دجلة والفرات في العراق منذ أكثر من أربعة آلاف سنة قبل الميلاد. ويعتقد العالم الإيطالي "O. Beccari" أنّ الموطن الأصلي للنخيل هو الخليج العربيّ، وان جيش الأسكندر المقدونيّ هو الذي أدخل زراعة النخيل في المنطقة المعروفة حالياً "باكستان" في عام ٣٢٧ قبل الميلاد. كما أدخلها المسلمون إلى بلاد الأندلس في القرنين السابع والثامن الميلادي.(٢)

النيل والزراعة

كانت الزراعة في أرض مصر كشفاً جديداً مع الإنسان وحضارته التي أدّت إلى انقلاب كبير في نظام الحياة للجماعات البشريّة. وكان لاكتشاف الزراعة في أرض مصر الدور الخاص، ذلك أنّ أرضها قد انفردت بميزة تتمثل في فيضان نهر النيل الذي كان يأتي في أواخر فصل الصيف وأوائل فصل الخريف، ونلاحظ أنّ منتصف الخريف أو أواخره هو الوقت الملائم لزراعة نباتات الحبوب الشتويّة بعد انحسار مياه فيضان النيل عن الأراضي الزراعيّة، أي كان الفيضان يمدّ أرض مصر بالماء والطمى ثم ينحسر عنها في أنسب وقت لزراعة تلك النباتات، حتى إذا ما زُرِعَت ونبتت كان فصل الأمطار الشتويّة فيها قد بدأ.(٣)

وكان المصريون الأُوَل في بداية أمرهم- العصر الميثولوجي قبل الأسرة الأولى- لايعرفون مجرى نهر النيل فيما وراء الشلال الأول شيئاً كثيراً. وكانت دنياهم التي ألفوها وعرفوها محصورة في ذلك الوادي الخصيب الذي كانوا يعيشون فيه، تحدّه الصحراء من جانبيه والبحر من شماله والجنادل من جنوبه، وكانوا يتوهمون أنّ هنالك بحراً أسفل الأرض متصل بالنيل عند جنادله الجنوبيّة من جهة وعند البحر من جهة أخرى. وهذا البحر "المحيط" هو الذي تغيب فيه الشمس والكواكب مساء ثم تسبحُ فيه ليلاً وتعود فتظهر منه في الصباح. (٤)

وقد عبّر المصريون عن فضل نهر النيل في حياتهم، ووردت في هذا المقام أنشودة سجلتها إحدى الأوراق البرديّة المحفوظة في المتحف البريطاني بلندن، تقول:

"لكّ الإكرام يا حابي،

إنّك تظهر لكي تجعل مصر تعيش،

إنّك تروي الحقول التي خلقّها رَع إله الشمس،

وتمدّ الحيوانات بالحياة،

وعندما تنزل من السماء،

فإنّك تمدّ الآدميين بالحياة دون انقطاع،

إنّك تملأ مخازن الغِلال بالحبوب،

وتجعل الإنسان غير محتاج للآخرة".

كما كان الملك إخناتون يُناجي ربّه "صاحب التوحيد"، مبيناً نعمة الله على شعب مصر:

"فجّرت النيل من باطن الأرض،

تُجريه بالزيادة والنقصان كيف تشاء،

لتحفظ أهل مصر،

لأنّك اصطفيتهم لنفسكَ وأنتَ ربّهم جميعاً".

ولعلّ الزراعة في مصر تحتاج إلى وفرة المياه للسقيّ وهذا ما وفره لها مياه نهر النيل في ريّ أراضيهم عبر أدوار التاريخ، واتبعوا في ذلك نظام ريّ الحِيَاض وكانت مياه الفيضان تغمرُ أرض الحِيَاض لفترة مُعينة، يرسب في أثنائها مُعظم الطمى الذي تحمله فيجدد خصوبة الأرض لتكون صالحة للزراعة، ثم تصرف المياه عندما ينخفض منسوب ماء نهر النيل، وتكون المياه الباقيّة مُحملّة ببعض أملاح التربة الضارة التي تصرف من الأراضي. (٥)

البردي زينة على الرأس

استطاع المصريون القدماء استغلال فيضان نهر النيل بصورة أفضل، وأصبح بالنسبة لهم في مرتبة الآلهة- مُصورّة كمخلوق مزدوج يجمع بين الرجل والمرأة، وتزيِّن رأسه حزمة من نبات البردي بدلاً من التّاج، كما أبرز المصريون مصر في صورة إلهين، ويقصدون بذلك نيل مصر العليا ونيل مصر السفلى، كما أظهر هذا الرسم الإلهين يُقدمان مصر كلّها هدية إلى الملك، وقد اعتاد المصريّ أن يُزين جوانب العرش بمثل هذه الرسوم أو ما يشابهها للتدليل على والثروة التي عمّت البلاد أثناء حُكم الملك. (٦)

من المغرب الأفريقيّ

هناك اختلاف واضح في نسبة دخول شجرة النخل إلى مصر، إذ ذكر البعض انّ النخلة قد أُدخلت إلى مصر عن طريق برزخ السويس، أو أنها وصلتها من المغرب الأفريقيّ عن طريق الواحات الغربيّة؟ وهذا الكلام مردود لأنّ القائلين بهذا الرأيّ أو ذاك، إنّما يحددون أنّ النخلة خرجت من مصر، لأيّ من الاتجاهين، أي أنّ مصر هي بداية انطلاق النخلة نحو الشرق، إذا كانت النخلة قد جاءت إلى مصر، من المغرب الأفريقيّ، عن طريق الواحات الغربيّة، أو هي بدالية انطلاق النخلة صوب المغرب الأفريقيّ، إذا كانت النخلة قد أُدخلت إلى مصر، عن طريق برزخ السويس، وهذا القول برأي قائله يجعل مصر نقطة ارتكاز وانطلاق للنخلة، إن شرقاً وإن غرباً، ولكنّ الراجح هنا أن النخلة إنّما أقبلت إلى مصر من أواسط السودان، وانتشرت من مصر شرقاً وغرباً. (٧)

نخيل وادي النيل

عرفت أرض وادي النيل بمصر زراعة النخل في عصور ما قبل التاريخ وهي بذلك شبيهة بحضارة وادي الرافدين في العراق. فالاسم الهيروغليفي للتمر هو "بنراو بنرت"، ويعني "الحلاوة" وهذه التسميّة قديمة تنفرد بها هذه اللغة القديمة ممّا يدلّ على قِدَم زراعة النخل بأرض مصر، وهذا لفظ هيروغليفي من معانيه "الحلاوة". ولقد وجدت رسومه على آثارهم، وصنعوا من أجزائه الكثير من المصنوعات، فالخوص كان المصريون القدامى يصنعون منه السلال والأخفاف ومن الليف صنعوا الحِبَال. ولقد عُثِرَ على أشياء كثيرة من هذه المصنوعات التي اتخذت النخلة مادة لها في مقابرهم، ومحفوظ بعضها اليوم في دار الآثار في القاهرة وفي المتحف الزراعي بالدقي.

وقد عثر الدكتور "رين هارت" في مقبرة بجهة الرزيقات قرب "أرمنت" على مومياء

من عصر ما قبل التاريخ ملفوفة في حصير من سعف النخيل، كما تم العثور على نخلة صغيرة أخرى كاملة في إحدى مقابر "سقارة" حول مومياء من عصر الأسرة الأولى "٣٢٠٠ قبل الميلاد". وقد استعان المصريون في عمل سقوف منازلهم ومقابرهم المصنوعة من اللّبِن بجذوع النخل من عصر ما قبل الأسرات. ولمّا استعملوا الحجر في البناء في عصورهم التاريخيّة لم ينسُوا النخيل فقلدوا شكل جذوعه في أسقُف مقابرهم كما يُشاهد في مقبرة "رضع ور" بمنطقة الجيزة من عصر الأسرة الرابعة "٢٧٢٠ قبل الميلاد". (٨)

نثر السعف على الجنائز؟

لقد وجدت صور النخيل على جدران القبور وبخاصة من الأسرة الثانيّة عشرة ضمن نقوش معبد الملكة حتشبسوت بالدير البحريّ بطيبة، وتدلّ تلك النقوش على انّه جُلِبَ من بلاد "بنت" أيّ الصومال. وعُثر في إحدى الصور المُكتشفة على أحد جدران قبر "رخميرع" بطيبة أيضاً من عصر الدولة الحديثة للنخيل شامخاً في الجوّ حول حوض به ماء. وجاء في برديّة هاريس، أنّ رمسيس الثالث قال: "أنشأت لكَ بستاناً وغرستُ فيه أشجار السنط والنخيل وزينت أحواضه باللوتس والبردي". وكان القوم يقدمون سعف النخيل من البلح المُجفف بكميات وافرة قرباناً لآلهة نهر النيل ويتيمنون بثماره.

كما كانوا يصنعون من السعف الباقات والأكاليل الجنائزيّة وجعلوا من الخوص الحديث النموّ فراشاً لبعض الجثث. وقد ذكر "ولكنسون" بأنّ المصريين القدماء كانوا ينثرون سعف النخيل في الطرقات التي تمرّ بها الجنائز، ولا يزال بعض المصريين يتبركون به فيحملون الباقات المصنوعة منه إلى القبور ويوزعون ثماره صدقة على أرواح موتاهم.

وتمّ العثور على صورة تمثل رجالاً يحملون سعف النخيل في طريقهم على قبور موتاهم، واعتاد النصارى أن يحملوا سعف النخيل المضفور في عيد "أحد الخوص" تذكاراً لدخول السيد المسيح- عليه السلام- ظافراً، وقد استقبله الشعب حاملين سعف النخيل مع أغصان الزيتون، ويرجع السبب في اختيار سعف النخيل لخضرته، والتي ترمز للحياة المتجددة، أو لأنّه أُخِذَ من قلب الشجرة، كما عُثر على باقات من سعف النخيل المضغوط في قبور العساسين بطيبة وتنتيس بالفيوم يشبه على حدّ كبير ما يستخدمه النصارى في أعيادهم اليوم. (٩)

أصناف التمور...

أما أحسن أصناف التمور تلك التي نبتت في مصر العليا وقد عُرِفَت في ذلك الوقت أصنافاً مازالت معروفة إلى اليوم كالأبريميّ والعامريّ والسيويّ، ثم ازدهرت بعد ذلك زراعة النخيل في مصر العليا، وأشار المقريزي في كتابه "خطط المقريزي" عن مدينة أسوان قائلاً: "بأنّها بلد كثير النخل، خصيب، كثير الخير، تُوضع النواة في الأرض فتنبت نخلة، ويُؤكل ثمرها بعد سنتين، والثمار منها تمر ورطب، وبها نوع من الرطب أشدّ ما يكون من خضرة السلق".

كما يُقال بأنّ الخليفة العباسيّ هارون الرشيد أراد أن يجمع له من ألوان تمر أسوان من كلّ صنف ثمرة واحدة فجمع له ويبه "كيلتين"، وذكر القاضي الفاضل أنّ مُتحصّل أسوان في سنة خمس وثمانين وخمسمائة بلغَ عشرين ألف دينار، وكان بأسوان ثمانون رسولاً من رُسُل الشرع وتحصّل منها في سنة واحدة "٣٠٠ ألف أردب تمراً". (١٠)

كذلك يذكر المؤرخون بأنّ ثروة مصر النباتيّة والحيوانيّة قد سارت في حيز التغيير التدريجي وأنّ بعض النباتات والحيوانات قد أدخلت إلى وادي النيل من افريقيا المجاورة أو من آسيا القريبة، وتمثل التجديد والتلاقح بين الداخل والخارج في هذا المقام في الأدوات الزراعيّة التي استعملها الفلاح في زراعة وريّ أرضه الزراعيّة. فقد عرف الفلاّح المصري القديم الفأس الحجريّة في أواخر العصر الحجريّ، واستخدمت الزراعة في العصر الحجريّ والحديث "حوالى٢٥٠٠ سنة قبل الميلاد"، ولكنّها تطورت وأصبحت معدنيّة في بداية عصر الأسرات، وربّما قبل ذلك العهد. (١١)

بلح صيص وأمهات؟

كانت النخلة شجرة مقدسة في حضارة مصر القديمة، حيث عرفوا لها التلقيح الصناعي الذي أخذوه من الحضارة البابليّة في العراق في عصر الدولة الحديثة. فقد عُثر في بعض القبور على أنواع عديدة من التمر الصالح للأكل والتمر الذي عُثر عليه في قبور الدولة الوسطى، كان صغيراً وقليل الحلاوة نسبياً ويُسمى هذا النوع في مصر اليوم "بلح صيص".

في حين تمّ العثور على كاسيّ جميلة من الخزف

الأزرق من عصر الدولة الحديثة نُقش عليها صورة لأربعة صبيّة وهم يجنون ثمار البلح، بينما القردة تساعدهم في جَنْيها، كما عثرعلى عقد يُمثل البلح من الزخرف الأخضر في احد قبور الأسرة الثامنة عشرة المحفوظ في قسم الزراعة القديمة بالمتحف الزراعيّ. بينما نجد ذكر البلح قد ورد ضمن نقوش قبر "معت" بميدوم من الأسرة الرابعة باسم "بنرت" كما سمى "أمت" ولعلّها نفس الكلمة التي تُطلق اليوم على صنف من البلح المعروف بـ "أمهات".(١٢)

استخدامات عديدة

عرف المصريون في حضارة وادي النيل استخدامات عديدة لأجزاء النخلة التي اعتنوا بزراعتها والعناية بها، ففي عهد الأسرة السادسة "٢٦٠٠ قبل الميلاد" صنعوا من عصارة النخيل نوعاً من الشراب المُسكر، والذي كانوا يصدرونه إلى الخارج، باسم "شراب الحياة"، ويعتقد بأنّه هو الشراب المعروف الآن في واحة سيوه باسم "اللقبي" الذي صدرت الأوامر المُتشددة منذ نصف قرن بتحريم صناعته، لما في ذلك من خطر يُهدد وجود النخيل، إذ أنّ النخلة التي تعطي قليلاً من "شراب الحياة" لا تلبث أن تدفع حياتها، ثمناً لهذا القليل الذي تجودُ به.(١٣)

وأدخل المصريون القدامى سعف النخيل في صناعة الحُصُر- الحصير- والسلاّل والأطباق والعبوات، وصنعوا من السعف أيضاً الأكاليل والباقات الجنائزيّة، وجعلوا من الخوص الحديث النموّ فراشاً لبعض الجثث، أما ثمار النخلة- التمر- فقد أكلوه طرياً ومجففاً واستخرجوا منقوعاً مُستخرجاً من الشراب مازال بعض الأهالي يستخرجونه إلى اليوم، كما أدخلوا مسحوق النوى في عمل الوصفات الطبيّة، واستعمل في نقع الجُثث المُعدّة للتحنيط لاحتوائه على الكحول. (١٤)

الجُمّارَة سلعة تجاريّة

وأتخذ أهل مصر من عصارة جُمّارَة النخلة سلعة تجاريّة، فمعنى اتخاذ عصارة النخيل سلعة تجاريّة أنّ النخيل كان بأعداد هائلة، ومعروف أنّ هذه الشجرة لكي تنتشر انتشاراً واسعاً، فإنّها تحتاج إلى عدّة قرون. (١٥)

ولا ننسى ونحن نتناول النخلة في حضارة وادي النيل من الإشارة إلى أن النخل قد ازدانت بها الحدائق المصرية القديمة ومن أمثلتها تلك الحديقة التي تنتمي إلى عصر الأسرة الرابعة "حوالى ٢٧٢٠ قبل الميلاد" وهي معروفة باسم حديقة "متن" في منطقة سقارة. (١٦)

الهوامش والمراجع المعتمدة

١- نزار عبداللطيف الحديثي: النخلة في التراث، وقائع ندوة النخيل، المجمع العلمي العراقي، بغداد، العراق، ٢٢ كانون الأول ١٩٩٧م، ص ٥.

٢- عاطف محمد إبراهيم ومحمد نظيف حجاج خليف: نخلة التمر زراعتها ورعايتها وإنتاجها في الوطن العربيّ، منشأة المعارف بالإسكندريّة، مصر، " دزت"، ص ١١.

٣- سعد هجرس: الزراعة المصريّة الماضي، الحاضر، المستقبل، المكتبة الأكاديميّة، القاهرة، مصر، ١٩٩٦م، ص ٢٢.

٤- محمّد عوض محمّد: نهر النيل، الألف كتاب الثاني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر، ١٩٩٨م، ص ٩-١٠.

٥- سعد هجرس: الزراعة المصريّة الماضي، الحاضر، المستقبل، ص ٢٤-٢٥.

٦- كذالك، ص ٢٣.

٧- عبداللطيف واكد: النخيل، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٧٣م، ص ٥٢.

٨- عبدالجبار البكر: نخلة التمر ماضيها وحاضرها والجديد في زراعتها وصناعتها وتجارتها، مطبعة العاني، بغداد، العراق "د.ت"، ص ١١، وعبداللطيف واكد: النخيل، ص ٤٩، وفتحي حسين أحمد ومحمد سعيد القحطاني، ويوسف أمين والي: زراعة النخيل وإنتاج التمور في العالمين العربيّ والإسلاميّ، مطبعة جامعة عين شمس، مصر، ١٩٧٩م، ص ٥، و محمد إبراهيم ومحمد نظيف حجاج خليف، ص ١٣.

٩- عاطف محمد إبراهيم ومحمد نظيف حجاج خليف: المرجع السابق، ص ١٤، وعبداللطيف واكد: المرجع السابق، ص ٥٠.

١٠- فتحي حسين أحمد ومحمد سعيد القحطاني، ويوسف أمين والي: المرجع السابق، ص ٤.

١١- سعد هجرس: الزراعة المصريّة الماضي، الحاضر، المستقبل: المرجع السابق، ص٢٤.

١٢- عاطف محمد إبراهيم ومحمد نظيف حجاج خليف: المرجع السابق، ص ١٤-١٥.

١٣- عبداللطيف واكد: النخيل، ص ٤٩.

١٤- فتحي حسين أحمد ومحمد سعيد القحطاني، ويوسف أمين والي: المرجع السابق، ص ٦، وعبدالجبار البكر: المرجع السابق، ص ١١-١٢.

١٥- عبداللطيف واكد: المرجع السابق، ص ٥١.

١٦- عبدالجبار البكر: المرجع السابق، ص ١٢.